بسم الله الرحمن الرحيم

منزلةُ اللّغةِ العرَبيّة بينَ اللّغاتِ وسُبُلُ حمايَـتِها

بحث مقدَّم من قبل :

الأستاذ المساعد الدكتور
دلدار غفور حمدامين الكُرديّ

الأستاذ المساعد الدكتور
نشأت علي محمود السنجاري

قسم اللغة العربية – كلية اللغات
جامعة صلاح الدين / أربيل – كُردستان العراق

إلى (المؤتمر الدولي الثاني للغة العربيّة)
تحت عنوان
(اللغة العربية في خطر : الجميع شُركاء في حمايتها)

والذي ينظّمه
المجلس الدولي للغة العربية
7- 10 مايو 2013م الموافق 27- 30 جماد الآخر 1434هـ

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه، أما بعد:

فممّا لا شكَّ فيه أنَّ اللغة العربيّة تعدّ هوية الأمَّة وشخصيَّتها، لذا تناولها العلماء بالدرس والتأليف والتصنيف فيها، لتكون لغة فكرٍ وثقافة وحضارة لكلّ مسلم يعتزّ بدينه على وجه البسيطة، كما لا يمكن غض الطرف عن العلاقة الوثيقة بين الإسلام واللغة العربية، لكونها علاقة نابعة من صميم العقيدة التي يمتلكها الفرد المسلم، واللغة العربية من اللغات الحية -التي نعتز بالتكلم بها كمسلمين-، وإن محاولة الكشف عن مدى نجاح محاولات نشر اللغة العربية في البلدان الإسلامية والبحث عن المنهج الأمثل لتعليم لغتها وآدابها وحمايتها، والوقوف على كيفية تطوير العلوم اللغوية والأدبية والثقافية العربية نظرية وتطبيقا من الموضوعات المهمة التي تحتاج يوما بعد يوم إلى دراسات وبحوث حديثة، تبيانا لمكانة اللغة العربية ومدى عناية المتحدثين بها وتطويرهم لها.

إنَّ الغيور على اللغة العربية يشعر بوجود فجوة بينها وبين العلوم والمعرفة والتقنيات الحديثة وغيرها من الميادين التي تنص عليها الأنظمة والدساتير، فهل هي مقصودة أم لا؟ لذا من الواجب رفع مستوى الوعي بواقع اللغة العربية ومستقبلها، والبحث عن الحلول المناسبة لحمايتها من الإقصاء الذي يلاحقها في الكثير من الميادين نتيجة مزاحمة اللغات الأجنبية والتطورات العلمية والمعرفية والمعلوماتية والتنموية المتسارعة التي تؤثر – من دون شكّ - على مستقبلها، فضلاً عن أنَّ جمع العاملين في حقل اللغة العربية وثقافتها على كافة المستويات والتركيز على الوجه التطبيقي لهذه اللغة الحية لمن الأعمال الطيبة التي تستحق كل التقدير والتبجيل، كما أن تشجيع تبادل الدروس والأفكار المستقاة من تجارب الآخرين وبيان الإحتياجات الخاصة والعامة لحقل اللغة العربية من الأمور الهامة في واقع حياة اللغة العربية والمتحدثين بها سواء أكانت لدى الناطقين بها أو بغيرها.

وقد أحسن الأخوة المخلصون في المجلس الدولي للغة العربية حين اختاروا "اللغة العربية في خطر الجميع شركاء في حمايتها" شعاراً لمؤتمرهم العلمي الثاني الذي سينعقد في الفترة ما 7-10 أيار 2013م الموافق 27-30 جماد الآخر 1434هـ بإذن الله تعالى .

لقد تمَّ اختيار هذا الموضوع لأسباب كثيرة، منها:

1- المشاركة في هذا المؤتمر العلميّ الذي نتمنى له النجاح كلَّهُ.
2- بيان أهمية اللغات ودورها في التواصل الحضاري والثقافي.
3- الوقوف على منزلة اللغة العربية بين اللغات .
4- بيان دور اللغة العربية في الحفاظ على الهويّة الإسلاميَّة.

5- بيان السبل الكفيلة بحمايتها في الواقع الرّاهن.

يتكوَّن هذا البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة، يتناول المبحث الأول مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، ووقف المبحث الثاني عند أهم السبل الكفيلة التي تحميها في واقعنا اليوم، ثم أتت الخاتمة ليلخَصَ فيها الموضوع وأهم نتائجه.

وأخيراً نسأل الله العليّ القدير أن يكتب لهذا المؤتمر العلمي المبارك والقائمين عليه كلّ النجاح والتوفيق، كما أسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا جميعا خدمة لكتابه العزيز ولغته الشريفة، والله الموفِّق.

الباحثان

المبحث الأول:

مكانة اللغة العربية بين لغات العالم

تُعدُّ اللغة من الأسرار والألغاز التي لم تحلّ، بل احتار العقل البشري في كنهها وحقيقتها، وقد يفسر هذا إقبال الباحثين و المفكرين على دراستها، فقد عرّفها ابن جنّي(ت3902هـ) اللغة :"إنَّها أصواتٌ يُعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"(ابن جني، الخصائص،33/1) وقال عنها ابن خلدون:"اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بدَّ أن تصير ملكة متكررة في العُضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها"(ابن خلدون، المقدمة،3/ 1979،1264م)، ويُعرّفها المحدثون بأنها:" نظام من الإشارات المغايرة وأنها على المستوى الاجتماعي مقدرة في الكلام الإنساني متوفرة في الناس الأسوياء بالوراثة، والتى يتطلب تطويرها المثيرات البيئية الصحيحة"(أحمد شيخ عبد السلام، مدخل إسلامي إلى اللغويات العامة، ص2000،67م).

ولا يمكن فصل أيَّة لغة عن الأمة أو المجموعة البشرية التي تتكلَّمُ بها، لأنَّ اللغة في الأمة الناطقة بها تمثل الصورة التعبيرية لثرواتها الفكرية والحضاريَّة والدينيَّة(حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة،352)،وقد قال فيلسوف الألمان فيخته: "اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين، إنها الرابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان"(د.فرحان السليم،اللغة العربية ومكتنتها بين اللغات، الأنترنت)، و"اللغة هي الجزء المشترك من كيان الأمَّة، وهي الوطن المعنويّ الواحد لحركة اللسان المعبِّرة عن حركة الفكر والنفس والوجدان، وهي تشبه حدود الأرض التي تحوي داخل محيطها الوطن المادّي لحركة جسم كلّ فردٍ من أفراد الأمَّة"(حبكة الميداني، أجنحة المكر،352-353)، وفي ذلك يقول مصطفى صادق الرافعي:"إن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة. كيفما قلّبت أمر اللغة -من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها-وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها"(مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن،1983م،49)،

فالجانب اللغوي جانب أساسي من جوانب حياتنا، واللغة مقوم من أهم مقومات حياتنا وكياننا، لأنها وسيلة الثقافة وأداة الرسالة والرابط الموحد الجامع بينهم – أي: بين أبناء مَنْ يتكلمون لغة واحدة- ، بل هي الصلة التي تجمع الأجيال، وحلقة الوصل التي تربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالمستقبل.

أولا : العربية واللغات الأخري :

تتميز اللغة العربية بخصائص كثيرة(ينظر: د.صبحي الصّالح، دراسات في فقه اللغة، ص 107وما بعدها، ووافي، فقه اللغة،ص164وما بعدها)، كالخصائص الصوتيـة والعموم والخصوص والاشتقاق والتعريب، والنحت، وغيرها، ففي الجانب الصوتي نرى أن اللغة العربية تملك أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات، حيث تتوزع مخارج الحروف بين الشفتين إلى أقصى الحلق(هادي نهر،الأساس في فقه اللغة العربية،م2002، 125)، وقد تجد في لغات أخرى غير العربية حروفاً أكثر عدداً ولكن مخارجها محصورة في نطاق أضيق ومدرج أقصر، كأن تكون مجتمعة متكاثرة في الشفتين وما والاهما من الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنة،أو تجدها متزاحمة من جهة الحلق، وتتوزع هذه المخارج في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات. ويراعي العرب في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي. فمثلاً لا تجتمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال. ولا تجتمع الجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد، ولا الحاء مع الهاء، ولا الهاء قبل العين، ولا الخاء قبل الهاء، ولا النون قبل الراء، ولا اللام قبل الشين (م. ن).

وأصوات العربية ثابتة على مدى العصور والأجيال منذ أربعة عشر قرناً. ولم يُعرف مثل هذا الثبات في لغة من لغات العالم في مثل هذا اليقين والجزم، وهذا الثبات هو الذي مكن العربية من فهم تراثها على تباعد العصور وليس كذلك كثير من اللغات"ويكفي أن نقارن بين لغة شكسبير واللغة الانكليزية الحديثة لنجد في العصر الحالي كلمات لم يكن يعرفها أو يستعملها شكسبير كما نجد ألفاظا أخرى تغيرت دلالاتها ،وكل هذا على الرغم من أنه ليس بين العصرين الا أربعة قرون،فإذا ذهبنا في الانكليزية إلى عهد تشوسر وجدنا أن الانكليزي في العصر الحديث لايكاد يفهم أو يعي مايقوله هذا الشاعر الانكليزي القديم"(د.إبراهيم أنيس، طرق تنمية الالفاظ في اللغة،1967،109 وينظر: د.عبد الغفار حامد هلال، العربية خصائصها وسماتها،2004م، 314-315)، إن التشويه الذي طرأ على لفظ الحروف العربية في اللهجات العامية قليل محدود، وهذه التغيرات مفرقة في البلاد العربية لا تجتمع كلها في بلد واحد، والتغيرات التي تحصل في الأصوات العربية أكثر ماتقع في أصوات المد الطويلة والقصيرة وهي في الطويلة أكثر ولهذا كان أكثر اختلاف القراء السبعة للقران الكريم في أحرف المد والحركات القصيرة اعلالا أو إمالة أو غير ذلك مما يطرأ على أحرف المد وأما التغيرات الصوتية في الحروف الصائتة فهي قليلة جدا في العربية وهذا الثبات -على عكس اللغات الأجنبية- ، يعود إلى أمرين : القرآن، ونزعة

المحافظة عند العرب، وللأصوات في اللغة العربية وظيفة بيانية وقيمة تعبيرية، وقد تكلم ابن جني في باب تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني وباب إمساس الألفاظ أشباه المعاني عن العلاقة بين الصوت والمعنى في العربية(ابن جني، الخصائص،145/2)

إن خاصة الروابط الاشتقاقية في اللغة العربية تهدينا إلى معرفة كثير من مفاهيم العرب ونظراتهم إلى الوجود وعاداتهم القديمة، وتوحي بفكرة الجماعة وتعاونها وتضامنها في النفوس عن طريق اللغة

وللأبنية في العربية وظيفة فنية، فقوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية أوزان موسيقية، أي أن كل قالب من هذه القوالب وكل بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة. فالقالب الدال على الفاعلية من الأفعال الثلاثية مثلاً هو دوماً على وزن فاعل والدال على المفعولية من هذه الأفعال على وزن مفعول .

وإن بين أوزان الألفاظ في العربية ودلالاتها تناسباً وتوافقاً، فصيغة (فعّال) لمبالغة اسم الفاعل تدل بما فيها من تشديد الحرف الثاني على الشدة أو الكثرة، وبألف المد التي فيها على الامتداد والفاعلية الخارجية .

والعربية قادرة على توليد الألفاظ للمعاني المتجددة،فإن المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية ولهذا تكلم علماء العربية عن طرق توليد الأفاظ للمعاني المتجددة،فتكلم العلماء عن القياس اللغوي بأنواعه وقعدوا قاعدة كلية وهي(ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) (ابن جنّي، الخصائص114/1) انتظم تحتها فروع لاتكاد تحصر إلى وقتنا الحاضر،فلم يقصروا القياس على الصيغ وأبنية الكلم فحسب بل عدّوه إلى الأساليب ايضا.

وفي العربية عموم وألفاظ عامة إذ يحتاج الإنسان في مراحل ارتقائه الفكري إلى ألفاظ دالة على معان عامة سواء في عالم المادة أو في عالم المعنويات. وسدت اللغة العربية هذه الحاجة، وأمدت المتكلم بما يحتاج إليه وبذلك استطاعت أن تكون لغة الفلسفة كما كانت لغة العلم والفن والشعر .

ويقول الدكتور يعقوب بكر: "إذا ترجمنا إلى العربية كلاماً مكتوباً بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقل من الأصل بنحو الخمس أو أكثر"(كتاب العربية لغة عالمية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية،1966م)، لأن اللغة العربية وإن اشتركت مع اللغات الأخرى في أمور عامة إلا أن لها أوضاعاً تختص بها، ولأنه مهما كانت الترجمة إلى اللغات الأخرى صحيحة ودقيقة فلن تفي بالغرض ولن تؤدي المطلوب، هذا إذا كانت هذه اللغات فيها من الحيوية ما يساعدها على استيعاب كثير من الأمور(هذه الشريعة عربية، مجلة البيان، ص46)، فـ"العربية بنيت على أصل سحريّ، يجعل شبابها خالداً عليها، فلا تهرم، ولا تموت، لأنّها أُعدَّت من الأزل فلكاً دائراً للنِّيرين الأرضيّين العظيمين، كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومن ثمّ كانت فيها قوَّة عجيبة من الاستهواء كأنَّها أخذة السّحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع"(الرافعي، تحت راية القرآن، 31).

إن انتظام القواعد الصوتية والصرفية وقواعد التركيب والاساليب يعد سمة لأي لغة على قدرتها على التطور والتقدم واستيعاب التطور الحضاري، وكان الإسلام فيما يرى مالك بن نبي، انفجاراً لغوياً تفكيريّاً مباغتاً، على نحو فريد في تاريخ اللغات، انبعثت به اللغة العربية كما انبعث به الرسول العربي (صلّى الله عليه وسلّم)

مثالا للثقافة الجديدة والحضارة الوليدة، وأداة أدبها الجملة المنظمة، بعد أن كانت البيت الموزون(مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص184-185)

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ اللغة العربية من اللغات الحية في عالمنا المعاصر فضلاً عن كونها لغة الدين الحنيف، وإن محاولة الكشف عن مدى نجاح محاولات نشر اللغة العربية في البلدان الإسلامية والبحث عن المنهج الأمثل لتعليم لغتها وآدابها لغير الناطقين بها، والوقوف على كيفية تطوير العلوم اللغوية والأدبية والثقافية العربية نظرية وتطبيقا من الموضوعات المهمة التي تحتاج يوما بعد يوم إلى دراسات وبحوث حديثة، تبيانا لمكانة اللغة العربية ومدى عناية المتحدثين بها وتطويرهم لها، لذا تناولها العلماء والباحثون بالدرس والتأليف والتصنيف فيها، لتكون لغة فكرٍ وثقافة وحضارة لكلّ مسلم يعتزّ بدينه على وجه البسيطة، كما لا يمكن غض الطرف عن العلاقة الوثيقة بين الإسلام واللغة العربية، لكونها علاقة نابعة من صميم العقيدة التي يمتلكها الفرد المسلم.

تأتي اللغة العربية اليوم في الموقع الثالث في لغات العالم، من حيث عدد الدول التي تقرها لغة رسمية، وهي تحتل الموقع السادس من حيث عدد المتكلمين بها، والثامن من حيث متغير الدخل القومي، في العامل الاقتصادي، وهي متأرجحة من حيث المنزلة في العوامل الأربعة الأخرى: (الثقافي، اللساني، الاقتصادي العسكري)، وهي تحتل المرتبة 22 في النشر الأدبي و المرتبة 42 في النشر العلمي عالميّاً، كما أنَّها إحدى اللغات الست الرسمية في أكبر محفل دولي: منظمة الأمم المتحدة، و إحدى اللغات الإحدى عشرة الأكثر انتشارا في العالم، (حسب ترتيب عدد المتكلمين بها: الصينية، الإنجليزية، الأسبانية، العربية، الهندية، الروسية، البرتغالية، البنغالية، الألمانية، اليابانية، الفرنسية)، كما أنها من الثماني، من بين هذه اللغات الإحدى عشرة، التي تكاد تقتسم المعمورة فيما بينها، وتحتفظ كل منها لنفسها بقاعدة جغرافية راسخة: (الماندرين في آسيا الوسطى، الأسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية، الإنجليزية في أمريكا الشمالية، العربية في شمال إفريقيا والشرق الأدنى، الهندية والبنغالية في أغلب القارة الهندية، الروسية في أوروبا الشرقية)، كما أنها من بين اللغات الست التي يعرف الناطقون بها تزايدا ديموغرافيا أكثر من غيرها، وهي حسب الترتيب: (الأسبانية والبرتغالية والعربية والهندية والسواحلية والماليزية)(د.محمد عبد الحي، اللغة العربية بين الخطر الخارجي والتهميش الداخلي، الأنترنت).

أما عن مكانة اللغة العربية في الغرب فالمطلع على الدراسات اللسانية المعاصرة يجد أن اللغة العربية تقع موضع اهتمام أكثر علماء اللسانيات تميزًا في هذا العصر، إذ تهتم دراسات هؤلاء بها من حيث إنها تتمثل لغة طبيعية يمكن أن تسهم في تقدم البحث اللساني النظري، فمن أعلام الدراسة اللسانية في هذا العصر الذين اهتموا باللغة العربية رومان جاكوبسون و جوزف جرينبرج و زيلك هاريس-أستاذ تشومسكي- و اللساني

البريطاني الشهير فيرث وغيرهم (مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، مكانة اللغة العربية في الدراسات اللغوية المعاصرة، ، العدد 53).

إنَّ المقارنة بين انتشار العربية وغيرها تُظهِرُ بأنَّ العربية "أقل جرأة ووسائل، لأن المسلمين لم يفرضوا لغتهم ويتشددوا في ذلك في البلاد التي فتحوها ولم يكن لهم من الوسائل العسكرية أو العلمية الحديثة ليستخدموا كل ذلك في نشر لغتهم كما حدث في الاستعمار في العصر الحديث، ولا ننسى أن العربية لما كانت لغة الدين كان ذلك دافعاً روحياً للشعوب الداخلة في الإسلام أن ترغب في هذه اللغة وتقبل عليها وتنشرها في بلادها(حبيب أبو قيس، علة اهتمام الأمم بلغاتها، مجلة البيان،ص 64).

لقد نتج عن غزو الرومان لوسط أوربا وشرقها وجنوبها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لفرنسا وأسبانيا وايطاليا وغيرها، ذلك مع قلة الرومان المغيرين على هذه البلاد بالنسبة لسكانها، وفي العصر الحديث عندما انتشر الغزو الأوربي لأطراف الأرض كوّنت دول أوربا كتلاً بشرية في مناطق هجرتها، وكثُر أفرادها مع قوة سيطرتها كان من ذلك أن نجم عن استعمار الانجليز لأمريكا الشمالية واستراليا وبعض نواح في جنوب أفريقيا انتشار اللغة الإنجليزية في هذه الأرجاء الواسعة. ونجم عن استعمار الأسبان في أمريكا الجنوبية أن كانت الأسبانية لغة معظم دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وغيرها(م.ن).

وإذا كان هذا الصراع السابق مرتبطاً بالصراع السياسي، وكانت ظروفه تختلف عن صراع آخر أقل جرأة ووسائل كتغلب اللغة العربية بفضل انتشار الإسلام على كثير من لغات الشعوب الآسيوية وعلى لغة الأقباط ولغة البربر في أفريقيا؛ فإن هذا لا ينكر خطورة الصراع اللغوي الذي قد تحدثه عوامل أخرى غير سياسية أو حربية، فـ"الصراع اللغوي يحتاج إلى عشرات بل مئات من السنين حتى يتضح أثره وتتجلى خطورته، إن هذا الصراع هو صراع بقاء ومحاولة هيمنة لإحدى هاتين اللغتين على الأخرى، وهذه أمثلة يتجلى بها للقارئ آثار الصراع اللغوي ونتائجه الخطيرة الأثر في حياة الشعوب"(وافي، علم اللغة،70، 232).

إن اللغة العربية هي أداة التواصل والتعارف بين ملايين البشر المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، لذا تُعدُّ من أقدم اللغات التي تتمتع بخصائص من ألفاظ وتراكيب وصرف ونحو وغيرها، وهي ثابتة في أصولها وجذورها، وهي من أعظم اللغات كفايةً، وأكثرها مرونةً وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول(وافي، فقه اللغة، 244، 247).

ثانياً : العربية والدين :

تكمن أهمية اللغة العربية في أنها لغة الثقافة الدينية للأمة الإسلامية، فهي اللسان الذي يصح اجتماعهم عليه، بعدما اجتمعوا على دين واحد، ولا غرو أن شيوع العربية في الأمة الإسلامية كبير ويبشر بالمزيد، بل إنه

كان لسان كثير من الأمم الإسلامية قبل أن تعمل مؤامرات أعداء الإسلام عملها في تفرقة هذه الأمة التي تكونت من شعوب تختلف في اللغة والثقافة، ومتى تحقق انتشار اللسان العربي بدرجة أكبر في الأمة الإسلامية فسيكون من أعظم العناصر توحّدهذه الشعوب الإسلامية، وتتذلل في سبيلها كثير من العقبات والعراقيل التي منيت بها الأمة الإسلامية، فاللغة رابطة من روابط الجنس، وقد حرم الإسلام التعصب للجنس لأنه مفرق للأمة ذاهب بالاعتصام والوحدة واضع للعداوة موضع الألفة(محمد رشيد رضا، العربية والإسلام، مجلة البيان، ص 96).

وقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن العصبية العمية الجاهلية وتبرأ ممن يدعو إليها أو يقاتل عليها، فقال: **{دعوها فإنها خبيثة}**(البخاري، صحيح البخاري،1987م، 1296/3)، فلم تكن العربية خاصةً بالعرب، بل هي لغة المسلمين كافة ولغة شعوب أخرى من غير العرب، وطوائف من العرب غير المسلمين، وما خدم الإسلام أحد من غير العرب إلا بقدر من لغته، ولم يكن أحد من العرب في النسب يفرق بين سيبويه الفارسي النسب وأستاذه الخليل العربي في فضلهما واجتهادهما في خدمة اللغة، ولا بين البخاري الفارسي وأستاذه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية العربيين وما أمر ابن صلاح الشهرزوريّ الكرديّ في خدمة السنة منّا ببعيدٍ.

وقد كان من إصلاح الإسلام الديني والاجتماعي توحيد اللغة بجعل لغة هذا الدين العام لغة لجميع الأجناس التي تهتدي به، فهو قد حفظ بها وهي قد حفظت به. فلولاه لتغيرت كما تغير غيرها من اللغات، وكما كان يعروها التغيير من قبله. ولولاها لتباعدت الأفهام في فهمه، ولصار أدياناً يكفر أهلها بعضهم بعضاً، ولا يجدون أصلاً جامعاً يتحاكمون إليه إذا رجعوا إلى الحق وتركوا الهوى.

ولم يخطر في بال أحد من سلف الأمة ولا خلفها قبل هذا العصر أن يأبى تفضيل كثير من الأعاجم في النسب على بعض أقرانهم وأساتذتهم من العرب في ما امتازوا به من خدمة هذا الدين ولغته، ولا نعرف أحداً من علماء الأعاجم له حظ من خدمة الإسلام وهو يجهل لغته ولولا أن ظل علماء الدين في جميع الشعوب الإسلامية مجمعين على التعبد بقراءة القرآن المعجز للبشر بأسلوبه العربي وأذكار الصلاة وغيرها بالعربية، ومدارسة التفسير والحديث بالعربية؛ لضاع الإسلام في الأعاجم منها(العربية والإسلام، محمد رشيد رضا،سابق)، وقد انتشرت العربية بانتشار الإسلام في البلاد الإسلامية، كبلاد فارس والتركستان والهند، وأصبحت لغة العلم والدين عند هذه الشعوب المسلمة.

وقد كثرت الألفاظ والتراكيب العربية في لغات هذه الأمم، ففي اللغة التركية توجد ألفاظ عربية كثيرة حتى وصلت ما يقارب النصف من مجموع ألفاظ اللغة التركية، ولم تسلم اللغة الأردية من غزو العربية لها في كثير من الكلمات، كما تفشت الكلمات العربية في لغة الكُرد والتتر والملايو والأفغان ولغة السواحل،وهي تكتب بالحرف العربي.

إنه لا يكفي في فهم الإسلام تعلم العربية في كتب النحو بل لابد من معرفة معهود العرب يوم أنزل القرآن من هذا اللفظ أو من ذاك حتى لا نحمّل اللفظ أكثر مما يحتمل، فإذا كانت الكلمات لم يطرأ على تراكيبها

أيّ تغيير فإنّ بعضاً منها تغيّر مضمونه بسبب البعد عن الفصاحة، ولذلك فإن كثيراً من الانحرافات في فهم الإسلام إنما جاءت من العجمة، والذي يتتبع تاريخ التفرق سيرى مصداق ذلك(أبو أنس، هذه الشريعة عربية، سابق46).

ولا يعني هذا الكلام غض الطرف عن الصعوبات التي تواجه المسلمين غير العرب في تعلّمها، ولكن على الدعاة، وطلبة العلم والعلماء أن يتكلموا بالعربية ويبيّنوا للآخرين أهمية هذه الغة وتعلّمها، لأنّها لغة التشريع الإسلامي ولغة القرآن وتعلمها من الدين، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب -كما قال المتقدّمون- (م.ن).

وقد عرف العلماء القدماء قدر اللغة العربية ومكانتها، قال ابن فارس(ت395هـ) :"لذلك قلنا أن علم اللغة كالواجب على أهل العلم لئلا يحيدوا في تأليفهم أو فتياهم"(ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة،35)، وقال ابن تيمية – رحمه الله تعالى- :"واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيراً قوياً بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق"(ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم / 53)، وقال أيضاً: "إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، لأن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بالعربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"(نفسه 207/1)، وقال ابن قيّم الجوزيّة -رحمه الله-(ت751هـ): "وإنّما يعرف فضل القرآن مَنْ عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها وأراجيزها وأشعارها"(ابن القيم، الفوائد،7).

وقد اعترف بعض علماء الغرب المعاصرين بأهمية اللغة العربية، فالفرنسي إرنست رينان يقول فى كتابه (تاريخ اللغات السامية): "اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة"، ويقول الألماني فريتاغ:"اللغة العربية أغنى لغات العالم"، وقال وليم ورك:"إن للعربية ليناً ومرونةً يمكنها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر"(د,أنور الجندي، اللغة العربية بين حماتها وخصومها،1983م).

ونقل عن المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس في علاقة القرآن بالعربية ما نصّه: " إنّ في الإسلام سنداً هامّاً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد . ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً . والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث

بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام"(د.أنو الجندي، الفصحى لغة القرآن، 1982م، 301).

ومعلوم أنّ ارتباط الإسلام باللّغة العربيّة ارتباط عضويّ متلاحم لا يمكن معه فصل العربيّة عن الدّين، لأنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربّي مبين، فالعربيّة مفتاحه، وأداة فهمه والباب إلى كنوزه، ونبيّ الإسلام محّمد –صلّى الله عليه وسلّم -عربيّ قُحّ، وسنّتُه- وهي التّشريع الثّاني للإسلام- لا تُفْهَمُ ولا يُعْلَم ما فيها من تشريع ومبادئ وآداب وأخلاق إلاّ باللّغة العربيّة المسطّرة بها، إذ لا يفهم هذا الدين حق الفهم، ولا يحاط بمراميه القريبة والبعيدة، ولا بقواعده الكلية وتفصيلاته الجزئية إلا عن طريق العربية، وبها بلّغ البشير النذير محمد –عليه الصلاوة والسلام- وبها كتبت أصول الإسلام في العقيدة والفقه والحديث والتفسير، قال تعالى {**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**}(يوسف/2).

المبحث الثاني :

سُبُلُ حماية العربية اليوم

لا شكَّ في أنَّ العربية قد تبوأت مكاناً راقياً بين لغات العالم، لما لها من خصائص ومميزات جمالية تجعلها تتفوق بها على أقرانها من اللغات، فضلاً عن أنَّها حملت رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، واستطاعت أن تكون لغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى بعد دخولهم الإسلام، حتى غدت لغة العلم والسياسة والتجارة والعمل والتشريع والفلسفة والمنطق والتصوف والأدب والفن في العصور الزاهرة من تأريخ الإسلام العريق، فاللغة من الأمة هي أساس وحدتها، ومرآة حضارتها.

وقد توفّر للعربية ظرف خاص لم يتوفّر لغيرها من اللغات، ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم، منذ أربعة عشر قرناً، وقد كفل الله عزّوجلّ بحفظ كتابه، حين قال تعالى {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**}(الحجر/9)، فلا يمكن قياس العربية الفصحى بما يحدث في اللغات الحيّة المعاصرة، فإنَّ أقصى عمر هذه اللغات لا يتعدّى قرنين من الزمان، فهي دائمة التطور والتغير، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة، تأخذ منها وتعطي، ولا تجد في ذلك حرجاً، لأنَّها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب مقدّس، كما هو الحال في العربية(التطور اللغوي : مظاهره وعلله وقوانينه 8).

والغيورُ على هذه اللغة يرى سبُلاً كثيرة للحفاظ عليها وحمايتها من الإقصاء والإبعاد عن جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية وغيرها، وفيما يأتي نحاول الوقوف على بعض من تلك السُّبُل :

1- البيت والأسرة :

إنَّ العائلة والأسرة هي المحطّة الأولى في حياة الفرد، وهي المدرسة الأولى التي يتعلم الفرد فيها أبجديات حياته، ويحمل الأحاسيس المتنوعة من حبّ وبغض وجرأة وغيرها، لذا فإن النداء موجه إلى جميع أفراد الأسرة من آباء وأمهات وأولياء أمور و إلى أبنائهم وبناتهم وجميع الأفراد بكافة شرائحهم وتخصصاتهم ووظائفهم ومواقعهم لجعل الطفل مهتمّاً بهذه اللغة التي هي لغة الدين والعقيدة، ويحاولوا تعلمه اللغة العربية السليمة كل على قدر همته وقدرته وإمكاناته، وأن يتحملوا المسؤولية أيًّا كانت للإسهام في دعم لغتهم التي هي جزء أساسي من عقولهم وتفكيرهم و ألسنتهم وشخصياتهم وهويتهم.

والبولندي في الشارع في بولندا يرفض أن يكلمك باللغة الإنجليزية ولو كان يعرفها، بل يفرض عليك أن تتكلم بالبولندية، ولائحات الشوارع واللافتات كلها بالبولندية، ولا مجال للغة أخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للألماني والفرنسي لا يتكلم معك بلغته.

وقد أورد الدكتور محمد أمين المصري -رحمه الله-من كلام أبي الحسن الندوي قوله: "وإن الاهتمام الزائد باللغات الأجنبية، وإعطاءها أكثر من حقها - يجعلها تنمو على حساب اللغة العربية، وإن تدريس عدة لغات في وقت ما قد أصبح موضع بحث عند خبراء التعليم خصوصاً في المراحل الابتدائية والمتوسطة"(المسؤولية، 130).

ومن الغرائب أن بدعة حديثة أصبحت تغزو المدارس الخاصة في ديار المسلمين، إذ يخصص لمادة اللغة الإنجليزية مثلاً أربع حصص في الأسبوع وأين؟ وفي أي مستوى؟ في رياض الأطفال، وسن التمهيدي، أي قبل السنة الأولى من المرحلة الابتدائية. وصار يعتبر ذلك معياراً لجودة هذه المدارس، بسبب إقبال الأهالي ورغبتهم ثم المتاجرة بهذه الرغبات، قال مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله-: "ما ذلَّت لغةُ شعبٍ إلاّ ذلَّ، ولا انحطّت إلاّ كان أمره في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبيُّ المستعمرُ لغته فرضاً على الأمّة المستعمَرة، ويركبهم بها، ويُشعرهم عظمته فيها، ويستلحِقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحدٍ: أمّا الأول فحَبْس لغتهم في لغته سجناً مؤبّداً، وأمّا الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً، وأمّا الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرُهم من بعدها لأمره تَبَعٌ"(الرافعي، وحي القلم29/3).

وقال حافظ إبراهيم على لسان العربية :

وسعْـتُ كتـاب الله لفظـاً وغايــةً وما ضقت عن آيٍ به وعظات

فكيفَ أضيقُ اليومَ عنْ وصْفِ آلَةٍ وتنسيقِ أسماءٍ لمُختَرَعــاتِ(ديوان حافظ إبراهيم253)

وللغة العربية فضل في اعتدال كلماتها، إذ نجد أكثر ألفاظها وضع على ثلاثة أحرف، وأقل من الثلاثي ما وضع على أربعة أحرف وأقل من الرباعي ما وضع على خمسة أحرف، وليس في اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصليّة، وقد جاءت ألفاظ قليلة جدّاً على حرف واحد أو حرفين(دراسات في اللغة العربية وتأريخها 17).

2- الإعلام :

يعدّ الإعلام من أهم مؤسسات التشكيل الثقافي، بل أصبح مصادر التشكيل الثقافي على تنوعها بحوزة الإعلام، حيث ألغى الإعلام كل الحدود الجغرافية والسياسية للدول، ولم تعد الشرائح الاجتماعية تهتم عمّن تتلقى، فهي تنتقل من قناة فضائية إلى أخرى ومن قناة إلى أخرى دون أن تكترث، وإن استقرت فإنها تستقر على قناة تعرف لغتها، لأن العائق اللغوي يلغي مشاهدة الكثير من من المحطات، ويأتي التلفاز في مقدمة الوسائل التي تستهلك اكبر وقت من حياة المشاهدين، ثم يأتي المذياع في المرتبة الثانية، ثم الصحف وتليها المجلات.

فالإعلام يحتلّ مساحة واسعة من الجدول اليومي والمسائي لدى أيّ فردٍ، حيث يعتمد الفرد والمجتمع على وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة والإلكترونية المختلفة للتوصل على المعلومة والخبر والترفيه، ولأن الإعلام يعد واحداً من أهم مصادر المعلومة والموجه الأول للشعوب لتبني المواقف والحصول على المعلومات فهو يشكل مرجعاً مهماً لتشكيل الوعي المعرفي والثقافي والوطني وصياغة العقول.

وقد أدرك الدكتور مهدي المخزومي – رحمه الله- أهمية المنابر الإعلامية – في الحفاظ على سلامة اللغة العربية -وتأثيرها حين قال " في تصوّري، يجب أنْ نبدأ بأجهزة الإعلام، بالصحافة وبالإذاعة، وبـ(التلفزيون)، لأنَّ لهذه المنابر تأثيراً كبيراً جدّاً في حياة الجماهير وفي تثقيفها وفي توعيتها، وما زال الجماهير مشدودة إليها تعب ما تقدمه لها قراءةً وسماعاً"(د.مهدي المخزومي، مقترحات ص 85).

إن أعلى نسبة للفصحى في الإعلام نلاحظها في البرامج التي تعتمد الخطاب الرسمي : كنشرات الأخبار، والتقارير، المناسبات السياسية، والمسلسلات الدينية ... وغيرها، وأعلى نسبة للعامية نجدها في برامج الأطفال، والأسرة، والبرامج المنوعة والترفيهية، والمسلسلات المعاصرة، والأغاني بكل لهجاتها .

والتلفاز وسيلة ذات جمهور واسع، تستغرق اكبر وقت من مشاهدة الناس، وتجده في كل مكان، كما انه يقدم أنماطاً من السلوك الاجتماعي واللغوي تفتقر إليها وسائل الإعلام الأخرى، وللصحف الجرائد قاعدة عريضة وتستطيع المنافسة إذا أحسن استخدامها وتوجيهها.

يبين أصحاب الخبرات الطويلة في البحث اللغوي أن أفضل طريقة لتعليم اللغة وأيسرها إلى الطبيعة، هو خلق بيئة فصيحة تنطق بها العربية، وان نستمع إليها ونطيل الاستماع، ثم نحاول التحدث بها ونكثر المحاولات، لأننا بحاجة إلى (تنمية الملكة اللغوية للمجتمع) أي نقله من مستوى إلى مستوى أفضل، ومن نمط بال إلى آخر متقدم، ومن طريقة تعبيرية سوقية إلى أخرى رائعة.

وتوجد ظواهر سلبية واضحة في وسائل الإعلام اليوم، مثل: فشو العامية على ألسنة بعض المذيعين ولا سيما في المقابلات والمحاورات، فضلا عن وجود بعض الألفاظ الأجنبية كثيرة التردد على ألسنة المذيعين، نتيجة ضآلة الأسلوب وضعف الزاد اللغوي.

وقد يكون السبب عائداً لأسسٍ غير علمية وبعيدة تماماً عن موضوعية، في اختيار المذيعين، كأن يكون المذيع (إذا كانت فتاة) حسناء ذات جمال، أما إتقانها اللغة العربية وتجويد أدائها، وحسن نطق مخارج الحروف، فهذه أمور لا داعي لرفض طلبها في التوظيف ما دامت تمتلك المواصفات الشكلية.

أما لغة الإعلانات –وهي الطّامّة الكبرى- فمشكلة كبيرة، ونقصد بالإعلانات تلك المنتشرة في كل مكان (في اللافتات المنصوبة على جوانب الطرق، والمحلات التجارية، والمتاجر)، إذ تغلب عليها الركاكة عليها وكثرة الأخطاء فيها.

ونتيجة لأهمية وسائل الإعلام لا بدّ من توجيهها نحو خدمة اللغة العربية الفصحي من خلال استعمالها للكلمات الفصحى، والعبارات السليمة، والتراكيب التي تجمع بين البساطة في التعبير، وتوافق قواعد اللغة.، والعمل على حثّ الجماهير على النطق بالعربية الفصحى، مع ضرورة وجود دائرة من المراجعين المدققين اللغويين ذوي الكفاءة يتتبعون النشرات والتقارير والبرامج الأخرى وتقديم جوائز تشجيعية لكل من يخرج عملاً إعلاميا من لقاء أو مسرحيات أو أغان أو مسلسلات بلغة فصحى مبسطة للجماهير.

وعلى المؤسسات الإعلاميّة عدم قبول أي كادر إعلامي إلا بنجاحه في مادة اللغة العربية، لأن هذا سيدفعهم للقراءة والمتابعة وتطوير قدراته اللغوية، وأن يكون اختيار المذيعين قائماً على جودة اللغة العربية، وإتقانهم لها، فكراً وثقافة، وكتابة موهوبة، فضلا عن زيادة الوقت المخصص للبرامج التثقيفية في اللغة العربية والعمل على رفع مستواها، كما يجب الربط بين الإعلام وأجهزته وبين خطط التعليم والمناهج المدرسية.

وحيث إن معظم وسائل الإعلام تعتمد على اللغة للوصول إلى الجمهور الواسع الذي ترغب في جذبه واستقطابه، فقد اتجهت بعض وسائل الإعلام إلى استخدام لغة ضعيفة تخلط بين اللغة العربية السليمة والعامية واللهجات واللغة الأجنبية .كما أن ثمة برامج ووسائل إعلامية لا توجد لها سياسات لغوية واضحة، وبعضها بلغ بها التخبط إلى حد دمج اللغة العربية باللغة الأجنبية حيث تستخدم المفردات والمفاهيم والمصطلحات والتعابير الأجنبية في سياق الجمل العربية وكأنها جزء منها .وهذا التشويه والاعتداء على اللغة هو تعدٍّ صريح على اللغة العربية وخروج واضح عليها من قبل بعض المذيعين ومقدمي البرامج والضيوف عاقبته إذلالها وإهانتها وتركيعها أمام اللغة الأجنبية في سبيل تحقيق مكاسب محدودة الفائدة مقارنة بالخسائر الضخمة التي تلحق باللغة العربية وما تمثله من مرجعية ورمزية للسيادة والهوية والثقافة الوطنية .كما ذهبت بعض الوسائل الإعلامية إلى تكريس اللهجات الدارجة المحلية لتوسيع الفجوة بين الفصحى واللهجات الدارجة.

ولهذا فإنه من الضرورة بمكان أن توضع سياسة إعلامية تحدد الوظائف والمسؤوليات وتضع الأجهزة الرقابية لمتابعة سوء الاستغلال لتلك الوسائل وإمعانها في إضعاف اللغة العربية، ووضع العقوبات اللازمة للحد ّمن هذه الظاهرة التي تضّر بواقع اللغة العربية ومكانتها ومستقبلها، وتقع هذه المسؤولية على وزارة الإعلام والجهات ذات العلاقة بالموضوع.

إن الإمعان في إضعاف اللغة العربية من قبل مؤسسات إعلامية متعددة مرئيةومكتوبة ومسموعة و إلكترونية بما فيها مواقع التواصل الاجتماعي التي تستخدم فيها اللغة العربية بحروف لاتينية يجب أن تواجه بإغلاق تلك الوسائل الإعلامية وحجبها لاعتدائها على حق من حقوق المواطن والمجتمع وتعديها على الثقافة والسيادة الوطنية،

وخاصة أن الأضرار الناتجة عن إضعاف اللغة العربية في هذه الوسائل ليست آنية الحدوث ولكنها مثل مرض السرطان الذي يظهر بعد فترة نتيجة تراكمات من الخلل والعلل والفيروسات التي تهدد الأمن والاستقرار والهوية والثقافة والسيادة الوطنية.

3- نشر الوعي :

من الواجب على السلطة وضع برامج إعلامية متنوعة لنشر الوعي باللغة العربية وتعليمها وإرشاد الناس إلى أهميتها وكيفية تحمل مسؤولياتهم تجاهها، فمن المصائب التي تعاني منها الأمة أن يكون تعليم أبنائها بغير لغتها، وتفكيرها بغير أدواتها، وقياس حاضرها يكون بمعايير وضوابط حضارية غربية عنها، وأدّت هذه الحالة من التخاذل والتكاسل والتبعيّة إلى أنْ تواجه العربية مجموعة من التحديات والمصاعب، وعلينا نحن حماة العربية أن نثبت بأن هذه اللغة ثرية غنية باقية تمتلك عوامل الصمود والتحدي في وجه الغزو اللغوي والفكري من الداخل والخارج ...

لقد تمَّ اتهام العربية بالعقم والجمود والتحجّر والقصور، وأنها لم تعد ملائمة لأساليب القرن الحادي والعشرين عصر الثورة المعلوماتية و الاختراقات الفضائية، فكان منا من نظر إلى تخلف العرب العلمي في عصر الذرة فأعلن أنه لا يرى لهذا سبباً غير تمسك العرب بلغتهم في مراحل التعليم عامة والتعليم العالي منها خاصة، وآخر يلحّ في الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية والتطبيقية بلغة غير أخرى فيظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن .

وظهرت دعاوى – في الوقت الحاضر- ترمي إلى تحويل العربية إلى مجموعة من التراكيب والدلالات التي يعجز اللبيب عن إدراك مراميها فضلا عن المثقف العادي . وقد بلغ مداه وأقصاه في ما يسمون أنفسهم (أهل

الحداثة)، والحداثة أمرها محدث وشر الأمور المحدثات، لم يفكروا في حداثة تحافظ على خصوصيتنا وهويتنا وشريعتنا، لتظهر مدارس "اللامعقول" المتنوعة (السوريالية، العبثية، العدمية، الوجودية)، فبدأ النقاد يكتبون عنها بأنَّها أكبر انقلاب حداثي، وأسمى سارتر مجلته "العصور الحديثة"، وفي الستينيات زعمت البنيوية أنها الثورة الحداثية التي لم يشهد التاريخ لها من نظير،وظهر بعدها نقيضها "التفكيكية" في أواخر العقد نفسه مدعياً الدعوى نفسها.

بما أن اللغة العربية ليست اللغة الأم في كثير من البلدان الإسلامية فإن ثمة إحساس قد شاع وانتشر بين المتعلمين للغة العربية – كما حصل أيضاً في البلدان العربية- وهو أن العربية لغة معقدة صعبة لا يمكن إتقانها، ورسموا لها صورة سيئة، جمعت بين التهويل والازدراء، نتيجة معاناة التلميذ في تعلُّم اللغة العربية منذ صغره لتغرس فيه فيما بعد اتجاهاً نفسياً سلبياً تجاهها، حيث تترعرع معه هذه الفكرة مع التلميذ في المرحلة الابتدائية وصولاً إلى المراحل الجامعية.

وقد يفسَّرُ موقف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة حين أصدرت عام 1951م قرارها بدعوة الأمم لتعليم الأطفال بلغاتهم الأم في المراحل الأولى للتعليم بإبعاد مثل هذه الأفكار التي تراود الطلبة بين حين وآخر(**UNESCO Intergovernmental Conference 1997, p. 8**....)، والحقيقة هي أن الصعوبة لا تكمن في اللغة ذاتها بقدر ما تكمن في الأساليب التي تدرس بها، آن لنا إذن أن نعيد النظر في كل ما نقوم به ونحن نعد برامج تعليم العربية أو نؤلف كتبها(د. رشدي أحمد طعيمة، تعليم العربية لغير الناطقين الأنترنت).

لا يمكن للإنسان أن ينفصل عن واقعه الذي يعيشه، لأنه ابن بيئته –كما يقال-، والماضي بعد من أبعاد الحاضر، كما أن الحاضر بعد من أبعاد المستقبل؛ لذا من الواجب الوقوف على صورة الواقع، والتعرف على ما في هذه الصورة من إيجابيات وما يشوبها من سلبيات، ولا يقف الأمرعند رصد الواقع، بل يتعداه إلى الوقوف على الأسباب الكامنة وراء الصورة التي تشكَّل بها هذا الواقع، مما يساعدنا (كمشتغلين بتعليم العربية لغير الناطقين بها) على التحرر من جلد الذات ومداومة تأنيب الضمير كلما حدثت مشكلة في هذا المجال فعزوناها لقصور منا ...(نفسه).

إنَّ التردي في عصور الانحطاط كان عاملاً من عوامل ضعفنا اللغوي، وهذا التردي لم يكن مقصوراً على العامة من الناس بل شمل العلماء والفقهاء حتى كان يعجز الكثير منهم عن كتابة رسالة خالية من العجمة، بريئة من الركاكة أو العامية، سليمة من الخطأ.

وكانت دروس الفقه والدين بل دروس النحو والبلاغة تلقى بلغة مشوبة بالعامية منحطة عن الفصحى. أما أساليب العرب الفصيحة والكلام البليغ فقد كانوا بعيدين عنه كل البعد، وكل ما تصبو إليه النفوس وترتفع إليه المطامح أن يقلد الكاتب أسلوب الحريري في مقاماته أو القاضي الفاضل في رسائله ومكاتباته .

لقد اختفت الفروق اللغوية وأصبحت الألفاظ المتقاربة مترادفة، ولم يبق الترادف مزية من مزايا العربية بل مرضاً من أمراضها الوافدة المنتشرة، وغلب على الناس استعمال الألفاظ في معانيها العامة فضاعت من اللغة بل من التفكير مزية الدقة التي عرفت بها العربية في عصورها السالفة، وأدى ذلك إلى تداخل معاني الألفاظ حين فَقَدت الدقة واتصفت بالعموم، وفقد الفكر العربي الوضوح حين فقدته اللغة نفسها، واتصفت بالغموض، وانفصلت الألفاظ عن معانيها في الحياة وأصبحت عالماً مستقلاً يعيش الناس في جوه بدلاً من أن يعيشوا في الحياة ومعانيها(محمد المبارك، خصائص العربية،1960،6).

إن الموقف يلقي أمامنا مشكلة النهوض باللغة العربية وقدرتها على الوفاء بحاجات أهلها في هذه الحياة الجديدة سواء في ميدان العلوم أو الفن أو الأدب بأغراضه وآفاقه الحديثة، أو في ميدان الحياة العملية بما فيها من مستحدثات لا ينقطع سيلها. كما يدفعنا باتجاه التحرر من آثار عصور الانحطاط من جهة ومن التقليد الأجنبي والعجمة الجديدة التي أورثنا إياها عصر الاستعمار والنفوذ الأجنبي من جهة أخرى .

لذا يجب علينا تكوين وعي لغوي صحيح يساير وعينا السياسي والفكري، بل هو الأساس لتكوين تفكيرنا تكويناً صحيحاً، فنتجه نحو الوحدة اللغوية والتحرر اللغوي والقضاء على التجزئة والشعوبية أو الإعجاب بالأجنبي في ميادين اللغة والفكر والثقافة.

إنَّ إهمال التدريس باللغة العربية حدا من نشر العلم، وجعله قاصراً على من يتقن اللغة الأجنبية، كما أنَّ التعليم بغير العربية يلقي في نفوس الطلاب أن لغتهم القومية غير ذات نفع لهم، وأنها لا تصلح أداة للعلم ولا وسيلة للبحث العلمي التي هي لغة التدريس والتعليم، وهذا رأي باطل، ولا يعني كلامنا إنكار تعلم اللغة الأجنبية بل ندعو إلى ذلك ولا يمكن إنكار أهمية اللغات الأجنبية بل لا بدَّ من تعلمها واتقانها(**اللغة العربية في التعليم...22- 23**).

1- مقاومة التحديات :

توجد تحدّيات كثيرة تواجه العربية وأهلها، وبغية حمايتها ممّا يحيط بها من تلك التحدّيات لا بدَّ من وضع البرامج والخطط المحكمة والدقيقة لمواجهتها، وفيما يأتي نذكر بعضاً من تلكم التحدّيات :

أ – اللّهجات المحلية :

لا شكَّ أنَّ وجود لهجات محلية إلى جانب لغة عليا للفكر واللغة ظاهرة طبيعيّة، لكن الإستعمار استغلّها بالدعوة إلى العامية ليحارب بها الفصحى تمزيقاً لوحدتها اللغوية والفكرية والمزاجيَّة(د.عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة93)، لأنَّ الدعوة إلى إستبدال الفصحى باللهجات العامية ولغات المناطق أوالإقاليم أو إحياء لغات قديمة ميتة دعوات نابعة عن حقد دفين للغة القرآن، يجب على الغيورين من أبناء الإسلام الإنتباه لها، وألّا يكونوا طرفاً فيها والدعوة إليها، وقد سار على هذا الدّرب – درب هدم العربية على أيدي أبنائها – جمع من المستشرقين

والمستغربين، فالمستشرقون شغلوا مناصب عليا في الجامعات والمدارس، وتولوا مهاما جسيمة، وألفوا كتباً في الدين واللغة، وضعوا فيها سمومهم الفكرية، فضلا عن قيامهم بغرس أفكارهم الخطيرة في أذهان الطلاب .

ففي كل لغة من لغات العالم الحية توجد لغة فصحى وتوجد لهجات عامية محكية ومهما اختلفت اللهجات بحسب المناطق والبلدان فإن المرجعية تكون للفصحى الأساس، ومهما دخلت الشوائب والكلمات الغريبة على اللهجات المحكية فإن الفصحى هي الحصن المنيع والمرجع الأخير لكل الطوائف من أبناء الشعب الواحد.

لقد امتلأت الكتب الحديثة والصحف والمجلّات والمحاضرات وسائر وسائل الإعلام بكمّ هائل من المفردات الدخيلة على العربية، كما تتردّد تلك المفردات في المكتوبات وتتداول على الأسماع، ليعبّد الطريق – في النهاية- أمام عزل العربية الفصحى عن ميادين الكتابة والعلم(حبنكة الميداني،أجنحة المكر386، 387).

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (عربية القرآن): "نجد العربية قد آنحدرت في العصر الحديث حتّى أصبحت في عداد اللغات المختلفة، وحتى أصبح كل أمل العرب أنْ تعترفَ المنظمات الدولية بلغتهم على أنها اللغات الدولية، وإن كان هذا الإعتراف لا يضيف جديداً إلى الوضع المتخلف الذي تعانيه اللغة العربية بين أهلها، وداخل أوطانها، وهو الوضع الذي سوف يستمر طالما بقيت العربية مبعدة عن مجالات العلم والتكنلوجيا، وطالما آتخذ العلماء العرب لغة غيرها كوسيلة لتدريس العلوم بالجامعات العربية"(د.عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، 1997، ص 146).

ب- بين اللغة الأم وغيرها :

لا شك في أن الاهتمام باللغة الأم للمسلمين غير العرب فيه جوانب ايجابية كثيرة، منها اعتزاز الانسان بلغته التي تعلمها خارج ارادته، ولكن يجب أن لا يكون على حساب اللغة العربية التي هي لغة العقيدة والدين، وقد يؤدّي إهمال العربية –بمرور الزمن- إلى أمور سلبية، منها:

الأول : تفشي الجهل باللغة العربية والابتعاد عنها لعدم وجود حاجة وظيفية حياتية إليها، مما يؤدي إلى عدم فهم لأصول ديننا الحنيف المتمثل في القرآن الكريم والسنة الشريفة والتراث الإسلامي المكتوب باللغة العربية.

الثاني : إن الجهل بالعربية يؤدي على الأرجح إلى ضعف لغة الحوار والتفاهم بين الأجيال القادمة من أبناء القوميتين العربية والناطقين بغيرها، والرابطة العقدية تجمعهما إلى الأبد، كما أننا نلاحظ في كثير من البلدان الإسلامية الاهتمام الزائد بالانكليزية على حساب اللغة العربية لا سيَّما في الجامعات، وكأنَّ العربية عاجزة عن تدريس العلوم الطبية والعلمية عموماً، وهذا أمر مرفوض لا يكتب له النجاح حين تتحد الجهود الجبارة والنيات الصادقة في المجامع العلمية(أ.د.عزالدين إبراهيم، اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام ...، وتجربة سورية في تعريب العلوم...، الأنترنت).

وقد يلجأ كثير منهم –أي: المعلمين أو المدرسين-إلى اللغة الأم(في المناطق ذات ثنائية اللغة) أو العامية العربية التي تعلمها في المعهد أو الجامعة التي تخرج منها، والتي تقع ضمن منطقة ذات لهجة خاصة، لشرح المادة العلمية أثناء درسه أو محاضرته مما يشكل عائقا آخر أمام تعلم الدارسين للغة العربية، ويحدث هذا أيضا في أوساط الجامعة وفي أقسام اللغة العربية، ربما لتهرب التدريسي من التكلم بالعربية إحساسا منه بالضعف أمام طلبته أو المادة الملقاة على عاتقه.

ومن الضروريّ بمكانٍ أنْ نشير إلى رأي فريق من علماء التربية لا يستهان به ؛ فالبعض يؤكد أن ثمة ظاهرةً تسمى ظاهرة: (الاعتماد أو التوافق المتبادل **Interdependence**) بين اللغة الأم واللغة الأجنبية، مما يؤثر في إتقانهما معاً؛ فالطفل الذي يتلقى دروساً في لغة ثانية (أجنبية)، قبل أن يتقن لغته الأولى لن يتقدم في هذه أو تلك(د نادية أحمد طوبا، الطفل العربي واللغات الأجنبية ،1993م، ص39، 83).

الخاتمة :

يتبّين ممّا سبق أمور عدّة ، يمكن تلخيصها فيما يأتي :

شارك المسلمون من غير العرب في بناء حضارة الإسلام، وخدموا اللغة العربية خدمات جليلة يشهد لها كل من له أدنى ثقافة بالتراث الاسلامي؛ لأنَّهم أدركوا أن اللغة العربية هي المفتاح الرئيس لفهم أصل الدين ومصدره.

وتعدّ تهيئة استعمال اللهجات المحلّية، وصعوبة التوفيق بين لغة الأمّ وغيرها من قبل الأفراد، وقلّة الوعي بمكتنة العربية ، وتفشّي المفاهيم الخاطئة عن لغة الضاد تحدّيات وعراقيل أمام استعادتها لمكانتها اللائقة بين اللغات، وأنها لغة تأريخ وحضارة وعلوم.

كما للأسرة والبيت والعائلة دورها البارز في تنشئة الجيل الجديد على حبّ العربيّة ومكانتها، فيحاول الوالدان تهيئة البيئة المناسبة لتعلّمها وحثّ الأولاد على التكلّم بها، أمالاعلام فقد يكون هدّاماً لصرح العربية الشامخ إن كان في خدمتها، وقد يكون لكس إن لم أحسن استعماله، لأنَّ واقع اللغة العربية ينبيء بمرارةٍ لا يشعر بها إلا مَنْ عرف قدْرَها، لذا لا بُدَّ من إعادة النظر في التعامل معها، من خلال بعث روح الاعتزاز باللغة العربية كلغة علم وحضارة.

إنَّ التغيير يبدأ أولا بالنية الصادقة والعمل الجادّ، ونحن نعيش اليوم بعد مؤتمرات علمية مماثلة تُعقد للإرتقاء باللغة العربية والحفاظ عليها، وما نرجوه هو الخروج بتوصيات واقعيّة مقترنة بالجهود الطيبة والنيات الخالصة والعمل الدؤوب.

والعربية هي ركن الإسلام الأصيل، وأساس بنيانه المتين؛ إذ لا يمكن فصل مصادر التشريع عامّة والقرآن منها على وجه الخصوص عن اللغة العربيّة، لأنّ العربية هي المفتاح الرئيس لفهم أصل الدين ومصدره، وهو كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد العلماء، فضلا عن توحيد الخطاب بها على المستويين العربي والإسلامي وفي كافة المجالات..

ويعدّ التنزيل المبارك الباعث الرئيس على تطور علوم اللغة العربية وازدهارها والحفاظ عليها، وجعل آخر هذه الأمّة على معرفة بتراث أولها، متفهّماً لها ومقدّراً لمكانتها بعد فهمها ووعيها.

المصادر والمراجع :

- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها(التبشير- الاستشراق-الاستعمار)، عبد الرحمن حس حبنّكة الميداني، ط8، دار القلم، دشق، سورية، 2000م.
- الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها، د.هادي نهر، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 2002 م.
- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1369هـ.
- تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ط8، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
- تعليم العربية لغير الناطقين بها في المجتمع المعاصر: اتجاهات جديدة، وتطبيقات لازمة، د. رشدي أحمد طعيمة، ضمن (اللغة العربية: إلى أين؟)، المتاح على موقع منظمة(إيسيسكو) الآتي:
- http://www.isesco.org.ma/pub/ARABIC/Langue_arabe/p18.htm
- الخصائص، ابن جني(أبو الفتح عثمان)، تحقيق : محمد علي النجار، عالم الكتب بيروت.
- خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد،، محمد المبارك، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1960م.
- دراسات في فقه اللغة، د.صبحي الصّالح ، ط16 ، دار العلم للملايين، 2004م.
- دراسات في العربية وتأريخها، محمد الخضر حسين، ط2، نشر : المكتب الإسلامي – مكتبة دار الفتح / دمشق، 1960م.
- ديوان حافظ إبراهيم، ضبط وتصحيح وشرح : أحمد أمين وصاحبيه، ط3، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1987م.
- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس(ت390هـ)، تعليق ووضع الحواشي : أحمد حسن بسج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1997م.
- صحيح البخاري(الجامع الصحيح المختصر)، البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير , اليمامة - بيروت ، 1407هـ/ 1987.
- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة: د.عبد الصبور شاهين، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية.
- طرق تنمية الالفاظ في اللغة، د.إبراهيم أنيس، دار تهضة مصر، القاهرة،1967م.
- العربية خصائصها وسماتها، د.عبد الغفار حامد هلال، ط5، مكتبة وهبة، القاهرة، 2004م.
- عربية القرآن، د.عبد الصبور شاهين، الناشر : مكتبة الشباب، مصر، 1997م.

- العربية والإسلام، محمد رشيد رضا(كتاب الخلافة 100) ، مجلة البيان، العدد 21،السنة 1989م.
- علة اهتمام الأمم بلغاتها، حبيب أبو قيس، مجلة البيان، العدد 17، السنة1989م.
- علم اللغة، د.علي عبد الواحد وافي، ط دار نهضة مصر.
- الفصحى لغة القرآن، د.أنو الجندي، دار الكتاب اللبناني- مكتبة المدرسة ، بيروت، لبنان، 1982م.
- فقه اللغة، د.علي عبد الواحد وافي، ط7، مطابع الهيئة المصريَّة للكتاب، 1972م.
- الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم االبيان)، ابن القيم الجوزيّة (شمس الدين أبو عبد الله محمد، ت751هـ)، عنى بتصحيحه : محمد بدر الدين النسعاني، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1327هـ.
- كتاب العربية لغة عالمية، نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، 1966م.
- اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والعالي والأعلى، أ. د. عز الدين إبراهيم، وتجربة سورية في تعريب العلوم في التعليم العالي، ضمن (اللغة العربية: إلى أين؟)، المتاح على موقع منظمة(إيسيسكو) الآتي:

- http://www.isesco.org.ma/pub/ARABIC/Langue_arabe/p26

- اللغة العربية بين حماتها وخصومها، د,أنور الجندي، ط. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983 م
- اللغة العربية بين الخطر الخارجي والتهميش الداخلي، د.محمد عبد الحي، بحث منشور على موقع (مركز الجزيرة للدراسات) على الأنترنت .
- اللغة العربية ومكانتها بين اللغات د.فرحان السليم، مقال متاح على موقع (صيد الفوائد)، على الرابط الآتي:

- http://www.saaid.net/Minute/33.htm

- لغتنا والحياة، د.عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطيء)، طبعة دار المعارف، مصر، 1984م.
- مدخل إسلامي إلى اللغويات العامة، أحمد شيخ عبد السلام، مطبوعات الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، 2000م.
- المسؤولية، د.محمد أمين المصري، نقلاً عن (تعليم اللغة الأجنبية للأطفال، محمد الناصر)، مجلة البيان، ع 36، السنة 1991م.
- مقترحات حول الحفاظ على سلامة اللغة العربية، د.مهدي المخزومي، ضمن كتاب (نحو لغة عربية سليمة)، من إصدارات وزارة القافة والفنون، دار الحرية للطباعة، 1978م.
- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون(عبدالرحمن بن محمد)، تح:على عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1979م.
- مكانة اللغة العربية في الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 53، السنة الحادية والعشرون.

- هذه الشريعة عربية (من خواطر الدعوة)، أبو أنس، مجلة البيان ، العدد2،1986م.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به، د.درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.
- UNESCO Intergovernmental Conference on Language policies in Africa (working documents), Harare, 17-21 March 1997, p. 8.